سورة إبراهيم... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر

«١»

كثيراً ما يمر التالي لسورة إبراهيم، بالآيات المشتملة على دعائه عليه السلام ربَّه أن يجعل البلد الحرام مكة آمناً، ويُجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام، فيأخذه المعنى العام المتعلق بالبلد الحرام، وأن مكة وُضعت ـ أول ما وُضعت ـ على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن إبراهيم عليه السلام ـ الذي كانت بسببه عامرةً آهلةً ـ تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن، واستجاب الله دعاءه، فكانت هذه الحقيقة العظيمة...

يمر التالي بالآيات، فيأخذه المعنى العام، وقد لا يستوقفه هذا الوضوح في إشراك بَنيه ـ عليه السلام ـ في الدعاء...

والآيات الكريمات هي قول الله تبارك وتعالى في السورة المومى إليها بدءاً من الآية الخامسة والثلاثين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

القضية التي يدعو بها إبراهيم عليه السلام، قضية تتعلَّق بالأصل الذي قام عليه بناء البيت، يوم رفع هو وولده إسماعيل قواعده ـ وهو التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ـ.

لقد دعا الله بأن يجعل البلد الحرام مكة ذا أمن، ويجنبه وبنيه أن يعبد الأصنام؛ فكأنهما أمران مقترنان.

ثم إن إبراهيم يريد أن يظلّ لبنيه وذريته شرف التوحيد، شرف إفراد الله تعالى بالعبودية التي هي أرومة الخير والطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ إنه يخاف على بنيه أن يعبدوا الأصنام، فدعا ربّه أن يجنبه وإياهم ذلك؛ وإنما كان خوفه من أن تزلَّ القدم، فيعبدوا الأصنام؛ لأن الأصنام ضلَّ بهن كثير من الناس، عن طريق الهدى؛ حتى عبدوهنَّ والعياذ بالله.

ولكن إبراهيم ــ بجانب هذا الدعاء ــ كان يقف ــ وهذا أمر بالغ الأهمية ــ عند حدود مسؤولية كل ولدٍ عما يعمل وتكسب يداه؛ فيقول في دعائه بعد ذلك: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومعنى: فإنه مني: أي من أهل ديني وملتي؛ فالهدف الكبير أن يكون بنوه على الحق ــ وهو التوحيد الخالص هنا ــ وذلكم هو الاتباع الحقيقي، والله غفور رحيم لمن تاب عن جنوحه وعصيانه وأناب.

والحق أن الذي ينبغي أن يستوقف الناظر المتأمل ــ إضافة إلى ما تحمل الآيات من العطاء الكبير، وكلماتُ الله لا تنفد ــ هو ما يحمل هذا الدعاء الضارع الخاشع من إبراهيم عليه السلام، من توجيه مبكّرٍ للمسلمين في العهد المكي إلى موقع الأولاد، ومن يولّي الله الإنسان أمرهم: من القضية الكبرى التي يصبرون ويصابرون تحت رايتها، ويتحمَّلون ألوان الاضطهاد والعسف، ومحاولات الفتن عن الدين. إنه موقع بالغ الأهمية أيضاً من أجل الأولاد أنفسهم، ومن ولي المرء أمرهم في الدنيا ويوم الدين، وكما هو بالغ الأهمية من أجلهم، هو على المستوى نفسه من أجل مسيرة البناء الخيِّرة التي يقودها ــ برسالة الإسلام ــ النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام.

فإذا كان كثير من الناس قد أضلّتهم الأصنام عن طريق الهدى، فالواجب الحتم أن يربّى الأولاد تربيةً تحول ـ بعون الله ـ دونهم ودون أن يتحوّلوا إلى عبادة غير الله، مراعىً في ذلك شديد اليقظة لما قد يكون من الأسباب القريبة أو البعيدة لذلك، ظاهرة كانت أو مموّهةً مبطّنة!!.

وإذن: فالتوجيه المبكر واحدٌ من المؤشرات الميمونة، على طريق بناء الإنسان المسلم الذي يكون له من إعداده الحقيقي، ما يؤهله لحمل أمانة البناء ومواجهة التحديات من داخل النفس ومن خارجها، ويكون ـ في الوقت نفسه ـ طاقةً تنمو وتتعاظم بزيادة الإيمان ـ لأن الإيمان يزيد بالطاعات وعمل الصالحات، وينقص بالإهمال والمخالفات ـ كما تنمو وتتعاظم بالممارسة الفعلية ـ في ظل الضوابط المشروعة ـ على أرض الواقع من أجل إعلاء كلمة الله.

وهكذا تتحوّل القضية من علاقة عاطفية بين الوالد وولده... ومن هم على هذا السنن.. إلى مسؤولية يتقاسمها كلٌّ منهما ـ حسب موقعه ـ في تلك المرحلة.

ومما يقرر ذلك ويؤكده: ما سبقت الإشارة إليه آنفاً: من أن إبراهيم عليه السلام كان ـ مع الدعاء الضارع الخاشع ـ وقّافاً عند العمل وتحمُّل التبعة بصدق وإيمان ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إن هذا المؤشر على طريق العملية الجذرية. عملية بناء الإنسان المسلم، والعناية بالنشء ـ تربيةً وإعداداً ـ أن يكونوا على الجادة، بُناةً أمناء: ينبغي أن يزيد من الشعور بمسؤولية بناء الجيل من قِبل المؤتمنين بدءاً من المنزل، وهي مسؤولية لا خيار معها لأمة تحرص على أن تستأنف طريقها إلى العلاء، لتنهض من عثار، وتأخذ ـ من جديد ـ مكانها القياديَّ تحت راية الرسالة الخاتمة في العالمين.

سورتا إبراهيم والبقرة... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر
« ٢ »

ما يزال الحديث موصولاً بومضات مشرقة من دعاء إبراهيم عليه السلام ـ كما جاء ذكرها في سورة «إبراهيم» ـ ضمن آيات كريمات بدئت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

ومن الخير استذكار ما استوقفنا من دعاء إبراهيم عليه السلام من إشراك بنيه معه، في أن يجنبهم الله عبادة الأصنام، وما وقفتنا عليه الآيات من كونه عليه السلام قد وضع القضية في إطار المسؤولية، وأن يتحمَّل كلٌّ من أولاده تبعة ما يعمل وتكسب يداه ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولعل من الخير بمكان: أن أشير أيضاً إلى أن هذه القضية ـ قضية المسؤولية وإشعار الإنسان المكلَّف بأبعادها، وما يترتب عليها ـ قد جاء أمرها واضحاً على الصورة التي اقتضتها الحكمة الربانية في سورة البقرة، حيث أعلم الله تبارك وتعالى عباده من طريق الخطاب لإبراهيم عليه السلام، أن المسؤولية كائنة في أعناق من هم أهل لها في التكليف، وأن الجزاء مرتبط بهذه المسؤولية. يقول الله تعالى بدءاً من الآية الثالثة والعشرين بعد المائة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فالذي ينال شرف الإمامة: من كان على الطريق الهادية، مستقيماً على توحيد الله وطاعته، يحمل مسؤوليته بأمانة، لا يحيد ولا يريم.

أما الظالمون ـ المتجاوزون حدود الله ـ فليسوا من ذلك في شيء، جزاءً بما كانوا يعملون ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

ويطالعنا في أعقاب ذلك توكيد المقولة المشار إليها، مقولة المسؤولية وارتباط الجزاء بها، فنقرأ في الآية التي تلي: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

بل إن هذه الآية قد جاءت على الصورتين المتقابلتين؛ صورة من آمن بالله واليوم الآخر، وأن ذلك طريق سعادته، واستمتاعه بالأمن والرزق الحسن، ثم نجاته يوم القيامة، وصورة من كفر وعتا عن أمر الله، كيف أنه يتمتَّع في الدنيا، وهذه المتعة قليلة مهما كان شأنها؛ لأن الدنيا إلى فناء... وغير هنيئة مهما كان شأنها؛ إذا قيست بما يكون له من سوء العاقبة يوم القيامة ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أمتعه قليلاً مدة حياته ـ وإن كان صفو الدنيا مشوباً بالكدر ـ ثم ألجئه في الآخرة إلى العذاب البئيس في النار، فلا يجد عنها محيصاً، ولا يغني عنه يومئذ شيء من حطام الدنيا، وبئس المصير جهنم.

هكذا تتصل الحلقات بدءاً من العهد المكي، وحتى العهد المدني، ويتضح للفئة المؤمنة التي يخوض بها ـ على الصعيد الإنساني كله ـ رسول الله ﷺ معركة البناء في ميادينه جميعاً... يتضح لها أن البيت ـ وفيه الأسرة ـ لبنة أساسية في بناء الصرح المرتقب، وخليَّةٌ بالغة الأهمية، لأنها الخلية الأولى في المجتمع.

هذا: والمؤشر في تكامل حلقاته التي بدأت منذ العهد المكي، من خلال الحيِّز الذي أخذه في دعاء إبراهيم عليه السلام، ومن خلال الأهمية التي أعطيت للمسؤولية، وعلاقة الجزاء الوثيقة بها في الدنيا والآخرة... هذا المؤشر على دروب

البناء التي سلكها أولئك الذين استجابوا لدعوة الحياة: جدير بالكثير من الاعتبار والعظة والتأمل؛ سيما وأن القضية التي كان يدعو بها إبراهيم عليه السلام، قضية جذرية تتعلق بوحدانية الله التي قام عليها البيت المعظّم.

وغير خافٍ أن الكلمات الهاديات، كانت واضحة فيما دلّت عليه من وجوب وضع المكلّف أمام مسؤوليته بوصفه أهلاً للتكليف والمسؤولية ــ وفي هذا مزيد من التكريم والإكرام ــ فلا تكاد تقف مسؤولية من أولاهم الله أمانة التربية والإعداد، والتعليم والإعلام؛ من الوالدين، والمعلمين والمربين ومسؤولي الإعلام... وما إلى ذلك! حتى تبدأ مسؤولية ذاك الإنسان الذي ربَّوه وأعدُّوه، وقد أصبح أهلاً للتكليف وتحمّل تبعات الواجب..

وإذن: فالمفروض أن تأخذ القيَم مكانها اللائق في البناء، وأن تكون التربية على المسؤولية ــ «**كلكم راعٍ وكلٌ راعٍ مسؤول عن رعيته**» ــ وحبٌ أداء الأمانة فيها من داخل النفس قضيةً لا تقلب المهاودة؛ وكل ذلك مرتبط أيَّما ارتباط بسلامة القاعدة التي يقوم عليها البناء، وهي عقيدة التوحيد الطاهرة المباركة التي من أجلها رفع إبراهيم قواعد البيت المعظم ومعه ولده إسماعيل وكان من دعائهما: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾**﴾.

العناية بتحديد المناهج للتربية والإعداد في ضوء الرسالة الخاتمة: ضرورة يقدرها حقَّ قدرها أهل البصيرة في هذا الشأن، علماً، وغيرة على الأجيال أن تحيد عن الطريق، وتتعطّل ملكاتها عن العطاء الخيِّر، وحرصاً على أن يكونوا من أهل الرضوان عند الله عز وجل: وفي الآيات المكية والمدنية فيضٌ من التوجيه إلى العمل على كل ما فيه سلامة الإنسان المسلم على ساحة البناء؛ وهذه أمانة في الأعناق لا يخرج القادرون من العهدة في أدائها على الوجه الأكمل إلا بذلك الأداء...

وقد وقفتنا معالم مضيئة ــ وكل المعالم القرآنية هداية ونور ــ في سورتي إبراهيم والبقرة على المؤشر البيِّن ــ بوجوده ودلالته ــ على طريق البناء؛ بدءاً من البيت أول خلية من خلايا المجتمع؛ حيث الواجب المؤكد في تربية الأولاد ــ على

عموم الكلمة في الدلالة ـ وإعدادهم حسب أهليتهم للتلقي ـ والكلام على التغليب بين الذكور والإناث ـ في كل مرحلة من مراحل السن، ثم العملِ على وضعهم بدقة وأمانة أمام مسؤولياتهم عندما يصلون إلى المرحلة المناسبة، وتنمية إحساسهم بهذه المسؤولية، بحيث تتكوّن عندهم الرغبة الصادقة بأداء الأمانة على هذه الساحة والوفاء بالواجب المنوط بكلٍّ منهم الوفاء به من داخل النفس، عن طمأنينة ورضى؛ الأمر الذي ينشيء ـ إذا أحسن البناء ـ حوافز الخير مهما كانت الصعاب، وينميها.

ذلك بأن الأمور ـ حسبما تقتضي العقيدة وما لها من حقوق ـ لا تجري في إطار من العواطف المتبادلة وتزجية الوقت، بعيداً عن مهمّاتها، بما لا يُسمن ولا يغني فتيلاً، ولكنها تجري في إطار تلك المسؤولية التي هي واحد من مظاهر تكريم الله للإنسان، حين جعله ـ بتكوينه واستعداده العقلي والقلبي والفطري عموماً ـ أهلاً للتكليف، ثم أنار له الطريق بنور الهداية، وحمَّله مسؤولية البناء في نفسه وفي أهله ومن ولاه الله أمرهم وفي المجتمع ـ قدر الطاقة ـ وجعل الجزاء مرتبطاً ـ على خط سواء ـ بتلك المسؤولية، ولا يظلم ربك أحداً... ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

والآيات التي جرى الإلماح إليها في صدر هذه الكلمات في سورة «إبراهيم» إحدى السور المكية: هي قوله جلت حكمته ـ بدءاً من الآية الخامسة والثلاثين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد الاستنارة بالمعلم القرآني في هذه الآيات المكية التي أوردتها بكاملها من عهد قريب، يُتيح النظر في آيات سورة البقرة المدنية التي تنصبُّ بعض معانيها في هذه القنوات المباركة على ساحة البناء.. يُتيح النظر المتبصِّر فيها استشفاف التكامل بين حلقات المؤشر الذي حوله ندندن على طريق بناء الإنسان في ضوء رسالة الإسلام، وضرورة أن يكون الاهتمام بالذرية من رحلة البناء ـ على تنوُّع شعابها ووعورة مسالكها.

والمسؤولية عهد في ذمم الجميع، كلٌّ حسب موقعه من تلك الرحلة، والثغرِ الذي أقامه الله عليه، ثم الميدان الذي عُهد إليه أن يضرب في جنباته بناءً وإنماءً، في سعي إلى تحقيق الصيغة المثلى لمجتمع مسلم قوي متوازن.

ولعل من الخير تجديد العهد بتلكم الآيات المباركات وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٥].

وتنتقل بنا الآيات إلى ما يؤكد المسؤولية، ويُشعر المكلَّف بحجمها وأبعادها، فنقرأ قول الله تبارك وتعالى في الآية التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

كثيرة وفيرة هي تلك الدروس، وبواعث العمل التي تفيض بها تلكم الآيات المكيُّ منها والمدنيُّ في هذا الموضوع المهم العميق، وهي ـ فيما هي عليه ـ أمانة تجدر ترجمتها في واقع البناء ـ حيث الشكوى من ضعف الصلة بحقائق الإسلام والتحديات الموجَّهة التي لا تكاد تنحسر عن ميدان ـ إلى وجود حيٍّ في المناهج المرتقبة التي طال انتظارها وتنفيذها ـ بعد الغَفْوَة الطويلة في دنيا المسلمين ـ على صعيدي التصوُّر والتطبيق.

وهنيئاً للذين يعملون بجدية على مختلف التخصصات راجين رحمة الله وتجارةً لن تبور.

دعوات إبراهيم.. ومؤشرات البناء السليم

«٣»

الدعوات الصادقة الخاشعة التي توجه بها إبراهيم الخليل عليه السلام إلى ربه ـ كما نرى في سورتي إبراهيم والبقرة ـ وقفتنا ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ على مدى الارتباط بين العمل الصالح المنبثق عن عقيدة التوحيد في ضيائها وعطائها، وبين ما يرجوه إبراهيم لبنيه وذريته من حياة كريمة مثلى وعاقبة حسنة في الدنيا ويوم الدين.

وإذن: فالتوجيه الذي برز في الآيات وتأكد في الآيات المدنية: واضح في حمل الجماعة على الجادة في شأن العناية بالبيت الذي هو الخلية الأولى التي لا يستقيم بناء المجتمع الفاضل إلا بأن تأخذ وضعها السليم كما ينبغي، تربيةً وإعداداً، وأخذاً بالأسباب في كل المراحل التي يتقلب فيها الأولاد مرحلة بعد مرحلة.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴿٤٠﴾﴾﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وكنت على أن أؤخر النظر فيما أكرم الله به الأمة ومهّد من طرائق الهداية في شأن الأولاد والذرية من الآيات في العهد المدني، حتى نكمل الرحلة مع ما ورد من ذلك في العهد المكي، ولكن ثناني عن ذلك أن قصة إبراهيم عليه السلام وما كان من دعائه وحرصه على ذريته أن تستقيم على أمر الله وتكون لها الإمامة في الخير، كل أولئك كان من مضمونات آيات مكّية وآيات مدنيّة على تنوّع في التفصيل؛ وشاهد ذلك ما نعمنا به في واحد من السور المكية هي سورة إبراهيم، وأخرى من السور المدنية هي سورة البقرة.

وبين يدي العودة إلى الآيات المكية نستضيء بهداها ونستلهم معالمها الخيّرة، أود أن أشير إلى أن إبراهيم ومن ورائه ولده إسماعيل عليهما السلام، كان واضحاً ـ والله أعلم ـ عندهما أن الضمانة التي لا ضمانة تدانيها، كيما تكون لذريتهما الإمامة في الدين والدعوة إلى الخير: هي أن تكون هذه الذرية على الإسلام ـ أن تسلم الوجه لله عز وجل، أن تستسلم له وتنقاد طائعة مختارة لأوامره ونواهيه ـ وكل ما هو من ذلك بسبيل.

ومن هنا كان من دعائهما عليهما السلام ـ وهما يرفعان قواعد البيت، بيت الله الحرام -: أن يثبتهما الله على الإسلام، وأن يجعل من ذريتهما أمةً مسلمة لله عز وجل وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يبلغ دعوة الإسلام.

إنها نظرات عميقة، تنتقل من الحلقة الضيقة ضمن الأسرة المحدودة التي هي الأساس إلى ما هو أوسع من ذلك بكثير... إلى الأمة المسلمة، كيما يعمَّ الخير والهدى، وتكون هذه الأمة موئل البشرية، ومعقل التوحيد الذي فيه سعادة الإنسان وطمأنينته، وتحقيق وجوده؛ لما أن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي تعني إسلامَ الوجه لله عز وجل في أكل أمر وفي كل شأن، والطاعة للرسول ﷺ لأن طاعته من طاعة الله، وهي منهج حياة يحمل في ثناياه ـ مع عمقه وشموله ـ كل مقومات الطمأنينة والسعادة وما فيه الوجود الحقيقي للإنسان، بالحفاظ على إنسانيته وكرامته وحريته، وإقداره على تحقيق ما خلقه الله من أجله في نفسه وفي الآخرين.

وإلى أن تتاح ـ بعون الله ـ متابعة تلك النظرات العجلى في الآيات التي أشرقت بدعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أجد من الأمانة التذكير بثقل الأمانة في استخدام ما تحقق عند غيرنا من منجزات لا تجفو قيمنا على صعيد التربية والتنهيج، ووضع ذلك بأمانة على طريق المسيرة البانية التي يراد من ورائها ـ بدءاً من النواة الأولى في البيت ـ إعداد الجيل المسلم ـ والحال هي الحال ـ لخوض معركة البناء كما هي في أبعادها، وجذورها ـ ضمن متغيرات العصر، واهتزاز القيم في بعض النفوس ـ وفي إطار توحي به عقيدة الأمة التي تمكِّن للذاتية والأصالة في كل ميدان والحمد لله.

دعوات النبيين الكريمين ومؤشرات البناء القويم

« ٤ »

هذه عودة إلى ما دعا به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان قواعد البيت، وما تحمل تلك الدعوات من أهمية المرتكز الأول في بناء المجتمع وهو: الأولاد وامتدادهم من الذرية، وما كان واضحاً فيها من الأمل بفضل الله أن ينتقل الخير من الدائرة الأولى إلى الأفق الأرحب، فيجعل الله من الذرية أمةً مسلمةً له سبحانه، وأن يبعث في تلك الأمة رسولاً يحمل رسالة السماء إلى الناس، يهديهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور. كل أولئك يحملنا على معاودة النظر في تلكم الآيات التي شملت ـ فيما شملت ـ تلكم الدعوات، كيما نتبيَّن مدلول ذلك الضَرَع على ساحة البناء والإعداد.

والآيات الكريمات هي ما نجده في سورة البقرة بدءاً من الآية السابعة والعشرين بعد المائة وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

هذه الآيات التي أخبرنا الله فيها خبر إبراهيم وإسماعيل ـ في رفعهما قواعد البيت وما كان من دعائهما الصادق الخاشع ـ تهدي ـ والله أعلم ـ إلى أن بناء الفرد والأسرة والمجتمع والأمة بوجه عام ـ إذا أريد لهذا البناء أن يكون بناءً سليماً يحمل القدرة على العطاء ويتسق مع الفطرة وما أوجد الله عليه الإنسان منذ خلقه في أحسن تقديم - لا بد أن يكون محورُه الإسلام... الإسلام الذي يعني الاستسلام لله عز وجل، والانقياد لأمره ونهيه وطاعته في كُل شأن من الشؤون مهما دق أو جل...

كما تشير تلك الآيات إلى العناية بالخلية الأولى وهي البيت؛ فإذا سلم لها التكوين الصحيح، كان ذلك أدعى لسلامة البنية فيما بعد، حتى يصل الأمر إلى الأمة ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

وهذا الاقتران في دعوات الخليل وولده عليهما السلام، بين أن يجعلهما الله مسلمَين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له: يدل ـ فيما يدل والله أعلم ـ على مدى الأثر الذي تحمله التربية بالتعليم والموعظة وبالقدوة، فكونهما مسلَمين ـ بالمعنى الدقيق للكلمة ـ نموذج يُحتذى لمن بعدهما، يضاف إلى ما يكون من دعوة الذرية إلى الإسلام بالتعليم والموعظة وما إلى ذلك.

هذه واحدة: والثانية هي أن الأمة المسلمة التي تتسق حركتها على ساحة الواقع ـ عملاً ومضموناً ـ مع العنوان الذي تحمله في نسبتها إلى الإسلام ورسالته الربانية: هي تلك الأمة التي تُعنى أشد العناية بالأولاد والذرية تربيةً لا تهمل المرحلة، ولا تغفل عن سنة الله في التكوين، وتعطي العقل والقلب والجسم والمشاعر، كل ما يستحق من الإعداد وتنمية الطاقات الفاعلة المؤثرة.. وتلكم هي الخطوة السليمة على طريق التنمية السليمة للموارد البشرية، التي هي محور الإفادة من الموارد الأخرى، اقتصادية كانت أو غيرها.

ولكم كانت مشرقة دلالة الآية على السلوك العملي عند إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فالعمل العظيم الذي يقومان به وهو رفع قواعد البيت المعظّم، إنما يكون له شأن حين يكون مقبولاً عن الله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ السميع للقول والدعاء العليم بالأفعال والنوايا.

وكل هذا وذاك بالنسبة لهما ثمرة من ثمار إسلام الوجه لله. وهما يريدان ذلك لنفسهما ولمن يسعده الله من ذريتهما.

وتلكم هي النظرات المبصرة التي تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وتريد للخير أن يستمرّ في الذرية والولد.

وكم نحسن إلى أنفسنا ومجتمعاتنا إذا وضعنا هذه المواقف موضعها من بناء الإنسان المسلم القادر على مواجهة الحياة. بإدراك الحقيقة أن وجوده الذاتي في هذه الحياة، لا يتحقق على الوجه المرضي إلا بالإسلام!!.

جيل البناء... والسنن الإلهية فيه ونور الدعاء والطاعة عند إبراهيم وإسماعيل

« ٥ »

الآيات التي سبق اصطحابها، والتي وقفنا المعلم القرآني من خلالها على واحد من مؤشرات البناء التي تتعلق بالنشء والذرية وتتسع إلى ما وراء ذلك... هذه الآيات التي كان منها قول الله جل ثناؤه على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ مما يلفت النظر فيها أن النبيَّين الكريمين لم يقولا: واجعل ذريتنا أمةً مسلمة لك بإطلاق، ولكن جنحا ـ بأدبهما ـ إلى التبعيض، فكان من تلك الدعوات ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ و«من» هنا للتبعيض..

إنه الموقف الذي يتسق مع واقع الناس ومقدار استجابتهم لدعوة الحق وتساميهم إلى مستوى يزينه إسلام الوجه لله، وتطويع العمل والسلوك لذلك..

ثم إن القرآن الكريم لم يُقم تَقَدُّم الولد أو تأخُّره على العلاقة النَّسبيَّة بأبيه، ولكن أقامها ـ كما هو من المسلَّمات ـ على مقدار الاستقامة على دين الله والأمانة في تحمل المسؤولية.

وفي بعض الآيات التي سبقت الدعاء الذي نلمح إليه ما يدل على هذه الحقيقة دلالة لا تقبل الاحتمال؛ ففي الآية الرابعة والعشرين بعد المائة، نقرأ قول الله جل وعز: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فإبراهيم عليه السلام ـ وقد ابتلي بكلمات فأتمهن ومن هذه الكلمات ابتلاؤه بأن يذبح ولده إسماعيل ـ امتثل لمولاه خير ما يكون الامتثال حين أبلغ ولده ما أمر به من ذبحه، واستجاب إسماعيل أفضل ما تكون الاستجابة وتلَّه والده للجبين، حتى كان إكرام الله بالفداء ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٨].

إبراهيم عليه السلام ـ وقد ابتلي فأتم ما ابتلي به من كلمات ـ: يكرمه الله تبارك وتعالى فيقول: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فيقول إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فيردُّ الله الأمر إلى السنة الإلهية التي لا تتخلف في ارتباط الجزاء بالإيمان والعمل، لا بالنسب، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

فالكافرون الظالمون من ذريته، لا ينالهم عهد الله بأن يكونوا أئمة يقتدى بهم في الدين، ولكن هذا العهد ينال المؤمنين الصادقين الذين لا يرضون بالاستقامة على الدين بدلاً، ولا يبغون عنها حولاً.

تلك هي السُّنة التي يتبدى فيها العدل الإلهي بأجلى مظاهره، وتلكم هي السُّنة التي ينبغي أن يُنشَّأ على تصورها وإدراكها الأجيال في كل الأعصر والظروف.

إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ـ وهو في أسمى حالات العبودية الصادقة وأداء ما ابتلي به من كلمات تامات غير منقوصات ـ ويرده الله ـ تعليماً للناس وتوجيهاً إلى الطريق الأقوم ـ يرده إلى سنته الحكيمة، بأن الإمامة التي ترجوها لهم منوطة بإيمانهم وصدقهم، والقيام بما يوجبه الإيمان الصادق من صالح العمل واستقامة السلوك.. أما الظالمون المتجاوزون حدود الله، المنتهكون حرمات عباده: فليسوا من ذلك في قليل ولا كثير، مهما ارتفع نسبهم، وتكاثرت دعاواهم، وزُخرفت أقوالهم!!.

ومن هنا كان الأدب النبوي الجمّ في دعاء النبيين الكريمين ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ثم سألا الله تعالى أن يعلمهما شرائع العبادة التي هي من مقتضيات إسلام الوجه لله.

وفي تواضع يليق بأدب النبوة وخالص العبودية لله، سألا الله التوبة مما قد يقع من الزلات﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

والأنبياء معصومون، ولكنه الأدب وتعليم الذرية ومن ولاهما الله أمرهما، والتنبيه على أن ذلك من لوازم التكوين الصحيح للمسلم مما لا يخفى على ذي بصيرة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].

السنة الإلهية.. وتكافؤ الفرص على طريق البناء الدعاء.. والعطاء

«٦»

كانت لنا من قريب وقفات أسعدتنا بآيات من سورة البقرة، كان منها ما جاء في شأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ورفعهما قواعد البيت الحرام، ودعائهما ـ وهما يرفعان هذه القواعد المباركة الميمونة ـ دعاءً يشير إلى المرتكز الذي هو قوام سعادة البشرية وهو الإسلام، حيث يستجيب الإنسان لداعي الفطرة، فيسلمُ وجهه في عقيدته وعبادته وعمله وكل شأن من شؤونه لله.

وذلك ما سألا الله أن يثبتهما عليه، لأنهما بعد دعائهما أن يتقبل عملهما في رفع قواعد البيت، قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

إنهما مسلمان حقاً، قد وجّه كلٌّ منهما وجهه للذي فطر السماوات والأرض. وما هما فيه من رفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود: ثمرة طيبة من ثمار إسلامهما وانقيادهما الصادق لأمر الله عز وجل، ولكنهما يريدان التثبيت، ودوام الحال التي يكونان فيها مسلمين حقاً في كل شأن من الشؤون، مهما كانت العقبات والصوارف.

ولما كان من فطرة الإنسان حرصه على أن يمتدَّ الخير الذي هو فيه إلى ولده وذريته، وكان من محبة الله تعالى الاستسلام لأمره، وإخلاص التوجه إليه: حبُّ المرء أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له.. لما كان الأمر كذلك، دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما عز وجل أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له أيضاً؛ فلم يكتفيا باستحضار الخير والرحمة من الله لنفسيهما فحسب، بل انتقلا

إلى دائرة أرحب ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ثم سألا الله أن يعلِّمهما شرائع العبادة؛ وفي تذلل خاشع لله عز وجل، سألاه التوبة، مع أنهما معصومان بعصمة الله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ والأدب النبوي في قولهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ مرتبط أيَّما ارتباط ـ كما أسلفنا من قبل ـ بالوقوف عند ما تقتضيه واحدة من سنن الله الحكيمة ـ وكل سنن الله كمال وحكمة ـ وهي قياس الأمور بالإيمان والعمل الصالح والاستقامة على أمر الله، لا بالأنساب والعناوين..

وكان ذلك واضحاً فيما دل عليه قول الله جلت حكمته: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ هذه الكلمات النيِّرات الجوامع...، كانت القولَ الفصلَ في قضية، لا تنحصر بجماعة من الناس أو جيل في عصر من العصور، ولكنها تصحب الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها..

إن هذه السنة الإلهية في ربط القيم بالإيمان والعمل والسلوك، لا بالأنساب والدعاوى: عزّزها من النصوص ما يدل أن على المسلمين أن يضعوها الموضع اللائق، وهم يعملون على بناء الإنسان، وإغناء المجتمع والأمة بالموارد البشرية القادرة ـ بإذن الله ـ على عمارة الأرض واستغلال خيرات الكون في طاعة الله تبارك وتعالى، على هدي الانقياد لأمره وإسلام الوجه إليه.

وهذه السنة التي لا تتبدل: كفيلة إذا أخذت مكانها الطبيعي على صعيد التربية والإعداد، أن تعطي تكافؤ الفرص ما يستحق من عناية، وأن تنشىء الحوافز الحقيقية التي تدفع بالمسلم ـ ضمن الظروف كلها والمتغيرات كلها ـ إلى ساحات العمل والإنجاز ـ بما في ذلك بذل المال والنفس ـ عن رضىً وطمأنينة، وتصور سليم للمنطلق والغاية؛ الأمر الذي يسهم إسهاماً حقيقياً في بناء القوة الذاتية للأمة ويتيح لها ـ وهي تتطلع إلى مستقبل أفضل ـ أن تضع أقدامها على الطريق المأمونة بإذن الله.

وربما يكون من الخير أن نشير إلى ما قد يتوهم من التعارض بين منع الإمامة عن أولئك الكافرين الظالمين ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وبين ما يعطون من متاع الدنيا: يدفعه قول الله تعالى في سورة البقرة نفسها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾.

البناء.. وثروة البشرية من سيرة الأنبياء عليهم السلام

ثروة البشرية من سيرة الأنبياء عليهم السلام: ثروة لا يقدُرها حق قدرها إلا أولئك الذين توافر لهم الحظ الأوفى من العقل الراجح والبصيرةِ النافذة، والقدرة على إدراك الترابط بين وقائع التاريخ، وخطوات الإنسان في ميادينه هنا وهناك..

فإذا تحقق ذلك ـ بجانب العقيدة الصحيحة ـ كانت النظرة السليمة المناسبة إلى تلك الثروة المضيئة المعطاء، ووضعُها الموضع الملائم من مسيرة البناء التي تأخذ أبعادها الحقيقية في ميادين الحياة، إذا توافر لها الإنسان المؤهَّلُ كما ينبغي المبنيُّ بناءً روعي فيه التكامل والتناسق مع الفطرة، وما كان من تكريم الله لبني آدم وخلقِ الإنسان في أحسن تقويم وما أودع الله فيه من أهلية الإفادة من تسخير ما سخّر له في هذا الكون العريض.

أقول هذا في متابعة للحديث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وما كان من دعائهما أن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة له سبحانه. فلقد تبيّن لنا من قبلُ ما للسنة الإلهية في ربط الأمور بالإيمان والعمل والاستقامة، لا بالأنساب والدعاوي ـ مهما كان لونها ـ من آثار على العملية الكبرى في بناء الفرد والجماعة وتنمية الموارد البشرية التي لا غنى للبنية الحضارية عن وجودها والتي تسهم في سعادة بني الإنسان.

أما الجاحدون الظالمون: هم هدامون في الدنيا أشقياء محرومون في الآخرة كما دلت الآية التي استضأنا بنورها فيما سبق ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الآية.

وما من ريب في أن قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يحمل في طياته الحرص على الوقوف عند هذه السنة الربانية الحكيمة؛ فمن لا يكون مؤمناً ولا يستقيم على الطريقة، أنَّى له هذا الفضل العظيم!.

والحق أن الذي نراه هنا عند النبيين الكريمين، الوالد والولد عليهما السلام، رأينا نظيره في دعاء الخليل عليه السلام الوارد في سورة إبراهيم، حيث الإعلان الواضح عن أن النسَب الحقيقي إنما يكون بسلامة اتباع النبي وطاعته فيما بلّغ عن الله عز وجل...

أما من سلك الشِّعْبَ الآخر، وانحرف عن الصراط السوي: فليس من ذلك النبي في شيء، وإن كان ولدَه من صلبه.

والدعاء الذي نلمح إليه في سورة إبراهيم، هو ما جاء في قوله تعالى ـ في حديث عن الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

ولا يخفى على ناظر منصف في البناء الحضاري المتكامل الذي أقامه الإسلام، ما كان لهذه السنة الإلهية الحكيمة ـ حيث يتفاضل الناس بالتقوى ويرتبط الحكم عليهم بما يُقَدِّمون ابتغاء مرضاة الله...﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ـ من أثر فعَّال في تهيئة تكافؤ الفرص، وإنشاء الحوافز عند القادرين، والإفادة من الطاقات، بصرف النظر عن أصحابها ـ جنساً ولوناً وما إلى ذلك ـ ما داموا مسلمين صادقين..

وهكذا أسهم في عملية البناء الكبرى وأعطاها عنوانها الإسلامي الأصيل: كل أولئك البررة الأكفياء الذين أسلموا وجوههم لله عز وجل إيماناً بالرسالة التي أوحيَ بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام وتحركوا بإمكاناتهم تحت رايتها..

وهذا الذي يبدو من تهيئة المناخ الملائم، وإتاحة تكافؤ الفرص للجميع، لأن التفاضل كائن بالإيمان والعمل الصالح المثمر، والسلوك الذي يدل على صدق الانتماء... جدير أن يزيد من ثقة الأجيال بمنهج القرآن في البناء واعتزازهم الشديد به، وأن ينمي في نفوسهم حوافز الانطلاق المجدي، والأخذ بالأسباب الموصلة ـ في ساحات العلم والعمل والجهاد ـ إلى ما فيه خير الأمة ووضع تطلعاتها المستقبلية موضع الحركة والتنفيذ إن شاء الله.